

ثورة النفس

بقلم الأستاذ سامى محمد

”فصتى هذه كالماء لا طعم لها ولكنها لذيذة ، قد تكون لذيذة لذتى أنا فقط ... لا بأس ! ... أليس لى أن أكتب لنفسى ... ونوذت مرة ؟ ...“

س.م.

كان يتناول راتبه الزهيد فى كل شهر فيفرج به على البقال والخزاز والحلاق ، ومن إليهم ... و يوزعه بينهم لكل حساب ، ثم ينكفى إلى منزله وليس فى جيبه إلا بضعة قروش يسيرة كان ينفقها أثناء الشهر فى أمور نافهة هى أمثلة من حياته النافهة التى كان يجزها من خلفه كأنها أعمال بالية ...

والحق إن أيامه كانت شاحبات وإحباط متشابهات : عمل سخيف مرهق متشابه ، وطعام سخيف رخيص متشابه ، ونوم سخيف باهت بالأحلام متشابه ... يا للسخف . ! وباللعار . ! تراهم — وقد خلقوا — لم يخلقوا إلا لتجيا فكرة السخف فيه وتجسد وتنقل حية ظاهرة بين الناس ؟

كان هذا شأنه من قبل . أما اليوم ، أما الليلة ، فلا ثم لا ... فقد تناول راتبه العزيز بعد انتظار لطيف ... وقصد إلى ؟ نعم مطعم فى المدينة بأسرها معتزما أن يصيب فيه عشاء لذيذا ضامرا ، ولو كلفه بعض راتبه أو نصفه ، حتى أوكله ... ولا بدع ، إنه لى يكون بعد اليوم ذلك الثور الذى ما ينفك يدور حول الساحات بغير غاية يدركها ... ! كلا ، ثم كلا ... إنه شاب ... إنه زوبعة وأعصار ... إنه روح الله فى صدر صرصور ... إنه سيعرف بعد اليوم كيف يحطم هذا الجسد الخفير النافه ليفسح المجال أمام هذا الروح العظيم ... وما قيمة الحياة إذا كانت متشابهة ؟ ... إنها يوم واحد سخيف يحمل متبرم به ... ولن يكون هذا بعد اليوم ... !

كانت له هذه جميعا فى هذا المطعم الأنيق الأغيد الذى غشيه بد تردد ، وأمام مائدة زاهية حبات كل ما تستطيع من طعام شهى ونحر متلهفة وسجائر حاملة ... جلس يشبع حواسه ويستمتع ويتشفى .. نعم ، ويتشفى ... !

وجاست إلى المائدة المجاورة عادة فائقة الزى عبقرية الجمال ، قوية النظرات ... رنت إليه فى زهر ، وكأنها تدعوه أن يشبع لنظر من جمالها الرائع الأخذ !

أتراها تنو إليه ، أم أن العيون الحسان تبدو أبدا وكأنهن يفزلن كل من تقع عليه نظرتن الفاتنة ؟ ... هكذا همس لنفسه ... إنه لا يمتنى على القدر فى هذه الساعة العظيمة أكثر من أن تنظر إليه ، إنه سعيد جهد السعادة ... ياله من شعاع علوى مسكر ذلك الذى يتأدى فى عينها .. !

ولقد ابتسم له المكان والكون جميعا بتلك الأنوار السعيدة الجذلى ، حين التفتت إليه الغائبة وانتسمت له ، وحين رآها على المقعد الذى أمامه ترد تحيته وتقبل سيجارته بعد لأى ... !

ولقد حدثها وأسهب فى الحديث ، زاعما لما أنه الوحيد لأحد سرة البلد ، وأنه ما دخل هذا المطعم إلا ليصيب فيه عشاء هادئا ، وكأما من النجس منعشة ، ويفوز ببعض الهدوء والصفاء اللذين ما قفى يشدهما فى جوه المألوف عبثا ...

ولقد أكل وشربا ثم شربا ، ولم يلبث الليل أن غاض إلا أقله ، وسرعان ما جاء خادم المطعم وهو ينفض عن عينيه طيف نعاس ، ويمنى يديه بغطاء جزيل ...

اقرب من مائدة الفتى وهو يقدم بطاقة صغيرة أوجز فيها الحساب بخط كريحه ، ما كان أنقله على قلب فتانا عندما اتضح له أنه أكثر مما فى جيبه ... وسرعان ما انتهت الفتاة الى الحقيقة المرة ، فقامت وفى نفسها ألم وبغض ، وهى تنظر اليه شزرا ، وأولاه كفتها ساخرة ... وكان قاب صاحب المطعم أشد قسوة من قلب الفتاة ، إذ لم يكن إلا بعد أن استولى على ساعة الفتى ، متفضلا عليه بقروش يسيرة ...

رجع الى منزله كمن ينتقل من حياة صاخبة الى مقبرة هادئة ، وليس فى جيبه من كل راتبه إلا بضعة القروش ، وعلى سريره الكتيب الواجم انطرح بكل ثيابه ، وبكل خيصة وحسرة ، حتى الصباح ... !

وفى اليوم التالى انتبه من نومه كالعادة على ألم صارخ شديد فى رأسه ونفسه وجسده .. ثم نهض ... ليتنظر إلحاح البقال البغيض ذى النظرات الطاخنة بمعنى طلب النقود فى كل مناسبة أوفى مناسبة ... وفى كل حين أوفى غير حين ... والجزار الضخم ذى الشارين المفتولين واليدين المخضبتين ... والحلاق المؤدب الذى ما يفتأ أبدا يتنعم ويفرك يديه ويتنعم ... ! ولصاحب البوفيه القائم فى مكان عمله قروش يسيرة ، ولكنه عليها حريص ! وكان للخم فى رأسه ضباب صفيق مظلم ، وفى أجفانه اضطراب وثقل ، والكون عابس فى وجهه مكفهرا ، والنفس فريسة للقلق الذى يساورها ... ولكنه استطاع أن يخلص آخر الأمر من إلحاح هؤلاء جميعا ، واتخذ القطار الى ضاحية من ضواحي المدينة يقضى صحابة يومه منظر حار يجسده المجهود ونفسه المرهقة فى حقل من الحنطة زاه ، فلا هو بالنائم ولا بالمستيقظ ، لا يسالى ، ولا يتألم ، ولا يفكر فى شيء ... !

وعند الأصيل قام الى مزرعة مجاورة وابتاع شيئا من الخس وغسله بماء التربة ، ثم جلس على العشب يلتمه كعجل حالم يتلهى بما أمامه من خضرة زاهية ...

ولما فرغ من ذلك ، عكف يشعل السجارة الأولى فى يومه ، وإذا عجوز حسن الزى وقور الملامح وديع النظرات ، فى وجهه شعرات بيض كأنها فضلات ناعج تهمس على أرض جرداء ، وفى يده غليون محشو ، وعلى شفتيه سؤال واضح يتردد ... ففهم صاحبنا بداهة ومد له عود الثقاب ، فتناولوه العجوز شاكرا ، وأشعل غليونوه وهو يقول :

— شكرا يا بنى... إني آسف لأن أكون قد قطعت عليك عزلتك .

— كلا يا سيدى... إني هنا منذ الصباح وقد كدت أسأم الوحدة .

— حقا... إن النفس لتسأم الهدوء كما تسأم الصخب ، وفي التغير وحده مناسها وراحته .

ففكر صاحبنا لحظة ثم أجاب :

— ومن ينكر أن في التغير سر الحياة المستغلق ؟

فاقتعد الشيخ العشب قبالة الفتى بغير دعوة ، أو كأن الموقف والجو وشهوة الحديث جميعا هى التى دعتة إلى الجلوس ، ثم قال :

— ولشد ما يحس المرء يا بنى هذا التغير فى التاريخ... إن التاريخ هو عزائى الوحيد

فى أيامى الباقيات... إني أقرأ فيه الماضى وأرى الحاضر وأتنبأ بالمستقبل . وإن متاعه الذى لا يمحى ولا يسأم هو الذى انتزعنى من العمل ومن الناس أجمعين وخلص بى إلى هذه الناحية لمطمئنة مع زوجتى كشخصين من أشخاص التاريخ فى ألمهما وهذوئهما وحدثهما... ولم ترق الفتى الحامد فى تلك اللحظة هذه المحاضرة المفاجئة ، وكاد يهم بصاحبه فيسفه له التاريخ ورجاله وأبطاله وعبه ، ولكن ثقلا فى معدته وفتورا فى نفسه وعتمة فى دماغه جعلته يؤثر السلام ويلتزم الصمت .

على أن صاحبه لم يرق له أن يدعه وشأنه فسأله برفق :

— أقرأ التاريخ يا بنى ؟ أعنى ألك بالتاريخ كلف ؟

فقال الفتى يرد عليه بلهجة فيها رنة السخرية الخفية :

— إني لا أهتم بالحاضر فضلا عن الماضى يا سيدى... إني أعيش لأننى لا أموت ! فضحك الرجل ضحكة قصيرة رقيقة وقال :

— إذن فأنت فيلسوف متشائم قبل لأوان... كلا ، كلا يا بنى... إني لأراك فى ضلال مبين . ولو أنك كنت قد ألقت التاريخ وعلقت به وأدمنت مطالعته لطالعتك من خلال حوائده وعبره روح نزاعة لا تكل ، وعزم حديدى لأفضل . إني أطلع الآن كتابا قويا من هذه الكتب الحديثة عن الحروب الصليبية ، وإني والله لأجد فيه من العبرة والمتاع ما لا يحده الإنسان فى عمر طويل . وإني ...

كانت الشمس قد تدت إلى الأفق مودعة ، وبهت النهار وغيض لونه ، وسرت فيه رعدة ، فتحرك الفتى للقيام وهو يقول :

— سنتحدث فى طريقنا إلى المحطة إذا شئت يا سيدى... إني لا يزال على أن أعود إلى المدينة .

فقاما ومضيا على مهل ، المعجوز يكمل محاضراته المتحمسة فى التاريخ ، والفتى عنه فى شغل بهذه البلاد التى احتلت ذهنه وخيمت على رأسه ، وبهذا التعاس الشديد الذى أخذ يتقل جفنيه ...

ولما بلغا بيت الرجل وهما في طريقهما إلى المحطة وقف الفتى يؤذنه شاكرًا له هذه المحاضرة القيمة التي لم يلزم منها مع الأسف بحرف واحد ، ولكن الرجل وقد لمس في صاحبه الوداعة والظرف ، وفي روحه النشاط والحاسة ، دعاه إلى تناول القهوة عنده ، فشكر له الفتى هذه المكرمة واعتذر ، فألح الرجل وأصر على دعوته ...

وتقدمه إلى منزله والفتى من ورائه يتبعه ، يصرفه عنه سام عظيم ، ونعاس مستحوز ، ويدفعه إليه فضول حامل يريد أن يستيقظ في نفسه على وفاء وإعياء ، من وراء سحب البلاة الكثيفة التي تخيم على عقله ...

وتقدمه الرجل إلى غرفة صغيرة هادئة في مدخل المنزل ، أناثها قليل مرتب ، وهدوؤها يغمر النفس بالصفاء والراحة والسلام ...

وطلب الرجل القهوة الموعودة ، ثم جلس إليه يقول :

— هنا ، وفي هذه الغرفة المنعزلة عن بقية المنزل ، أنفق الساعات والأيام مع كتي الغاليات المليئة بالأسرار والدهر ، وإلى لأعذر عن قلة الأنثى ، فإنى لأحب البساطة ، وأتسلها في كل شيء .

كانت الغرفة بسيطة الأنثى . متواضعة حقًا ، كما قال صاحبها : بها منضدة فرشت عليها بعض الكتب ، وإلى جانبها خزانة بها أكراس أخرى من الكتب ، وحولها ضمة مقاعد مريحة مصفوفة ، وفي الناحية الأخرى سرير خفيض نظيف ، ترناح إليه العين قبل الجسد ، ويفرى على النوم . وإلى جانب السرير منضدة صغيرة عليها ساعة قديمة كانت ترسل دقاتها الموسومة بالخافتة ...

واستأنف الرجل محاضرتة ، وخيال الفتى المتهالك ينصرف عنه تباعا ليدلف إلى هذا السرير المريح ، يحسره الغطاء قليلا ، ثم يندس تحته ويستسلم إلى نوم عميق ، ليس يعنيه قط أن يفيق منه أبدا ... !

واستغلت على الرجل نقطة خطيرة في محاضرتة ، فقام إلى خزانة الكتب ليحجى بجمعها فلم يجده ، فراح يتلمسه في غرفة أخرى ...

واختلس التي من السرير نظرة فإذا هو رحيب رحيب حنون ، وإذا صوت الساعة يرتد في سمعه أغنية رقيقة حاملة ترددتها أم رؤوم على مهد وحيدها العالي لينام ، وإذا طلائع الليل الساجية الموهجة تغمر الغرفة ... وإذا هو ينهض من مجلسه بمحركة آية قسرية ، فيخلع حذاءه ويحسّر الغطاء عن السرير قليلا ، ثم يندس تحته ويتردى في أعماق غيب دمه غير ذى قرار ...

ولما عاد الرجل بعد حين . وعبر الغرفة بنظرة دهشة شامة باحثا عن ضيفه ، إذ لمح في السرير يغط في نومه ، فسمرت قدماه حيث هما ، وتعلقت عيناه بالسرير تحلقان فيه عجا ، و ... ! ! !

سامي محمد

سكرتير تحرير مجلة الشؤون الاجتماعية